



الجنرالات وإسقاط النسر العربي (1- 3)

بقلم : رائف محمد الويشي

5 أغسطس 2012

ظهر النسر العربي يخلق بقوة في سماء العالم بظهور جمال عبد الناصر ، كان الطائر ينبأ عن قوة واعدة يتحسب لها العالم بسبب توافر كل العوامل التي تضمن صعوده ، فقد كانت هناك وحدة الدين واللغة والجغرافيا والتاريخ ومصادر الثروة والتقدم ، لم يكن ينقصه ناقص ، جاء المحرك فضغط على مفتاح التشغيل لتلك العوامل فنهض الشعب العربي على قدميه واستيقظ من غفوته .. سعد النسر العربي ، كان جناحه الأيسر في الجزائر وجناحه الأيمن في العراق وقلبه يضخ بقوة في مصر ..

تنبه الغرب على الفور لقوة هذا النسر ، كانوا يعرفون أن محركه يتمرتس في القاهرة ، بذلوا أقصى جهدهم في صيف 1956 في وقف نموه بإلغاء تمويل السد العالي ، رد عليهم عبد الناصر بتأميم القناة ، أدخلوه بعد أربعة أشهر في حرب ثلاثية ظالمة ، خرج منها منتصرا ، رد عليهم بالتصعيد في الجزائر وتكلم العمل بالنجاح التام .. أدخلوه في اليمن لإشغاله وجاءت ضربتهم في 1967 ،

أمضى المارد العربي ثلاث سنوات وعاد بقوة أكثر مما كان .. احتاج هتلر لتوقيف ألمانيا على قدميها إلى عقدين من الزمان وكان في حالة سلام ، هاهو عبد الناصر في ثلاث سنوات وشهرين ينهض ويصبح أقوى مما كان رغم الإشغال في حرب استنزاف ملتعبة ، بل ويقلل من حجم الفجوة العسكرية التي كانت بينه وبين إسرائيل قبل تلك الحرب ..

كان لا بد من رحيله من الداخل بعد أن فشلوا في ذلك عبر الحروب ، تكفل فنجان القهوة في فندق هيلتون التحرير والذي صنعه أحد أهم أفراد الطابور الخامس ، أطلق سمومه على القلب النابض فتوقف عن الضخ ..

كان من الملفت للنظر أن الجناحين الأيمن والأيسر يعملان بكامل طاقتيهما لسد الفراغ الذي حدث في القاهرة .. كان الجناح الأيسر هو الأكثر كفاءة وقريب الشبه للقلب الذي توقف في القاهرة ، شاب الجناح الأيمن أنه كان انفعاليا ، ويتعجل النتائج ، ولا يجيد المناورات لتفادي الضربات ، ويأخذ قراراته الخطيرة وهو في قمة انفعاله ، ورافق الطائر بصفة عامة أخطاء في ملف حقوق الإنسان ، ربما بسبب خوف قادته من التربص الخارجي بمصير بلادهم ..

احتاج الغرب لعدة سنوات لإيجاد وسيلة تصلح للخلاص من الجناح الأيسر ، لقد وجدوا سيناريو الخلاص من عبد الناصر يصلح للتطبيق في الجزائر ، فقاموا بالتنفيذ في أول فرصة أتاحتها لهم القدر ..

بقي العراق وحيدا ، كان من اليسر إسقاطه بتوريطه في حرب دامية لثمان سنوات عن طريق صبيانهم في المنطقة ، خرج منها مفلسا وكان يترنح كالحيوان الجريح ، أدخلوه في مشكلة أخرى في الكويت ، وكان من السهل للأسباب الذي ذكرناها عن ضعفه أن يأكل الطعم واحدا بعد الآخر ، عاجوه برصاصة الرحمة في 2003 ، لقد سيطر جنرالات أمريكا على العراق منذ هذه اللحظة ..

أمضت القيادة الجديدة في الجزائر سنوات وهي تحاول أن تبنى ، لكن جنرالات فرنسا من وراء الستار كانوا يعيقون عملها ، وصل الأمر إلى اختفاء الخبز وتجويع الشعب بنهب ثروته من طرف الجنرالات .. أدركت القيادة الجزائرية الجديدة أن المواجهة مع جنرالات فرنسا ستكون خاسرة بسبب سيطرتهم على مقاليد الأمور ..

أعلنت القيادة هناك عن إجراء انتخابات ، بل إنها مهدت إلى قيام ثورة تصحيحية لتسليم السلطة إلى الشعب .. فاز نواب الشعب في انتخاباتهم ، فقام جنرالات فرنسا بانقلابهم .. مضى على انقلابهم عشرون عاما لكنهم مازالوا يسيطرون على مقاليد الحكم ، صحيح أن هناك رئيسا للبلاد يسمى عبد العزيز بوتفليقة ، لكن العارفين بالأمور يدركون أنه لا يزيد عن كونه ستارة يختفي من ورائها الجنرالات ..

لقد تشابهت حالة مصر والجزائر في الخلاص من قيادتيهما الرشيدتان وهذا أولا ، كما تشابهت الحالتان في نهضة الشعب واختيار نوابه وهذا ثانيا ، لكنني كباحث وبكل أسف أكاد أجزم أن مصر مقبلة على التشابه للمرة الثالثة مع الحالة الجزائرية ، وهي سيطرة جنرالات الغرب على مقاليد الأمور في القاهرة .. سنخصص هذه الدراسة للتركيز على الحالة الجزائرية ، لعلها تثير لنا الطريق كي نتجنب الوقوع فيما وقع فيه أشقاؤنا بالجزائر ..

حصلت الجزائر على استقلالها عن فرنسا في يوليو من عام 1962 بعد احتلال استمر 132 عاما وعلى أثر ثورة شعبية مسلحة بدأت في نوفمبر 1954 وخلفت وراءها أكثر من مليون ونصف المليون من الشهداء ودمار هائل بالبلاد .. تولى الحكم في سبتمبر 1962 عباس فرحات عقب الاستقلال وهو من قادة جبهة التحرير الوطني ، ظل لمدة عام في سدة الرئاسة حتى أُنْتُخِبَ أحمد بن بيلا في سبتمبر 1963 لمدة خمس سنوات ..

قاد قائد الجيش هواري بومدين في 19 يونيو 1965 انقلابا عسكريا أطاح بأحمد بن بيلا وأحكم قبضته على البلاد فكان رئيسا للدولة ورئيسا لمجلس قيادة الثورة ورئيسا للوزراء ووزيرا للدفاع .. قويت المؤسسة العسكرية في عهد هواري بومدين ، كان جهاز المخابرات العسكرية هو أقوى أسلحة تلك المؤسسة حيث كان يُخشى منه داخل الجزائر وخارجها لما عُرف عنه من وأد أي معارضة داخلية في مهدها ، إلى هذا الجهاز يرجع الفضل في الإطاحة بالرئيس الموريتاني الأسبق معاوية ولد دادة بسبب انحيازه إلى المغرب في قضية الصحراء الغربية حيث كان - وما زال - العداة التاريخي هو المسيطر على العلاقة المغربية الجزائرية ..

لم يكن الغرب سانجا كي يترك هاتين الحالتين - نقصد في مصر والجزائر - لتحقيق نهضة صناعية كبرى وغير مسبوقه في تاريخ المنطقة مع معدلات تنمية اقتصادية ضخمة ، وتطوير شامل في التعليم والصحة ، وتحقيق اكتفاء ذاتي في الغذاء ، وجيش قوى مع بداية دخول في المجال النووي ، لقد كان التدخل الجراحي المباشر هو الحل الأمثل بعد أن فشل في تطويعهما ..

لقد ذكر أنطوني إيدن رئيس وزراء بريطانيا في منتصف خمسينات القرن الماضي في مذكراته أنه أصدر أوامره إلى أجهزته الأمنية بوضع خطة لاغتيال جمال عبد الناصر ، كان السبب هو خروجه عن السيطرة البريطانية ومحاولاته العديدة لصناعة القرار المصري من القاهرة وليس من العواصم الغربية .. أما في الجزائر ، فكثيرا ما كان الزعيم هواري بومدين يذكر في لقاءاته مع مواطنيه بأنه يحلم بأن تكون الجزائر هي يابان الشرق الأوسط ..

لقد تعرض الرئيس بومدين إلى مرض غامض في نوفمبر 1978 وسافر إلى الإتحاد السوفييتي سرا للعلاج منه وفشل الأطباء هناك في معرفة حقيقة المرض ومعهم أشهر أطباء العالم في هذا التخصص وكان طبيبا سويديا ، وما زال أطباء العالم حتى هذه اللحظة غير قادرين من معرفة ما تعرض له جسد الرئيس بومدين الذي رحل إلى العالم الآخر في 27 ديسمبر 1978 عن عمر يبلغ السابعة والأربعين ..

لا يجب أن نفصل ما حدث لبومدين عما حدث قبل شهر من مرضه ، عندما عاد مبعوث جزائري من المغرب برسالة من ملكها الحسن الثاني إلى الرئيس بومدين يقول فيها له " إذا لم نتقابل هذا العام فلن نتقابل مرة ثانية أبدا " ..

إن اليد التي امتدت إلى جسد جمال عبد الناصر في مصر ، هي نفسها اليد التي امتدت إلى جسد هواري بومدين في الجزائر ، والوسطاء من أفراد الطابور الخامس في الحالتين هم من قاموا بالتنفيذ ..

لقد احتدم الصراع بين أفراد المؤسسة العسكرية في الجزائر عقب وفاة بومدين ، لكن المخابرات العسكرية بقيادة الجنرال قاصدي

مرباح حسمت الموقف واختارت العقيد الشاذلي بن جديد - قائد المنطقة الغربية العسكرية - في يناير 1979 ليكون خلفا لبومدين ..

كان يُعرف عن الشاذلي بن جديد بأنه خجول ومن مؤيدي سياسة هواري بومدين ، لكنه كشف - بعد أن سيطر على مقاليد الأمور - عن ميوله الليبرالية وبدأ في التخلص من الضباط المواليين لهواري بومدين ، ويا لتكرار الأقدار في الحالتين المصرية والجزائرية وكأنها نسخا كربونية !! ..

دفع الشاذلي بن جديد بضباط ما يُطلق عليهم بـ " جنرالات فرنسا " ، هم أولئك الضباط الجزائريون الذين خدموا في الجيش الفرنسي ضد بني وطنهم ثم انضموا إلى جيش بلادهم ، إما عندما لاحت بوادر النصر أو بعد استقلال البلاد ..

لقد شهدت معظم ثمانينات القرن الماضي أكبر عمليات الفساد في الجزائر وسيطر جنرالات فرنسا على كل مجالات الحياة في الجزائر وخاصة الاقتصادية ..

لقد صرح عبد الحميد الإبراهيمي - وزير تخطيط في الفترة 1979 / 1984 ورئيس وزراء في الفترة 1984 / 1988 وخبير اقتصادي دولي معروف بنزاهته واحترافه - وفي أكثر من مكان أن جنرالات فرنسا في الجزائر نهبوا 26 مليار دولار في النصف الأول من ثمانينات القرن الماضي فقط ، وأنهم تقاسموا اقتصاد البلاد بينهم ، فقد كان هناك جنرال لاستيراد الأرز ، وآخر لاستيراد القمح ، وثالث لاستيراد السيارات ، ورابع لاستيراد مواد البناء ، كانوا يحددون أسعار تلك السلع بما يحقق لهم مليارات من الدولارات كهامش ربح ..

النتيجة الطبيعية إذن لما كان جرى هو توقف المصانع التي بُنيت في عهد بومدين ، واعتماد الاقتصاد الجزائري كليا على الاستيراد بدلا من التصنيع ، وتراجع معدلات النمو ، وضعف الخدمات المقدمة للمواطنين ، واختفاء فرص العمل ، واحتقان اجتماعي شديد بين المواطنين ينم عن يأس نتيجة لما يجري من فساد مدعوم بالأمر الواقع المستند على القوة العسكرية ..

بدأ التيار الإسلامي في الظهور بمجرد شعوره بحالات الفساد ، كان هذا الظهور مبكرا وتحديدا في 12 نوفمبر 1982 ، فقد تجمع الآلاف من المعتصمين في الجامعة المركزية بالعاصمة وطالبوا الشاذلي بن جديد برفع الظلم عن الشعب والقضاء على الفساد وتحسين المجتمع من إفرازات الغزو الثقافي الغربي ..

على أثر ظهور التيار الإسلامي ظهرت الحركة البربرية في مناطق القبائل ، وهي حركة تدعو إلى اعتماد اللغة الأمازيغية كلغة رسمية بجانب العربية ..

لم تكن واشنطن بعيدة عما جرى في تلك الأوقات في الجزائر ، كانت زيارة جورج بوش مدير وكالة المخابرات المركزية في العام 1982 للجزائر وخطابه في كلية الشرطة حيث ذكر أن الخطر الحقيقي الذي يواجه الجزائر يتمثل في ليبيا والتيار الإسلامي ..

واصلت الأمور في التدهور ، خاصة بعد أن شعر الشعب الجزائري أن الشاذلي بن جديد ليس هو المسيطر على دفة الحكم في البلاد بل جنرالات فرنسا الذين أتى هو بهم ، فقد أكلوا الأخضر واليابس وجعلوه دمية أمام شعبه ..

اندلعت في البلاد ثورة شعبية في 5 أكتوبر 1988 سماها بعض المراقبين بـ " خريف الغضب " وسماها البعض الآخر بـ " ثورة الخبز " ، تساءلت حينها الشعوب العربية في أقطارها باندعاش عما يحدث في دولة بتروولية من المفترض فيها أن يعيش المواطن فيها في يسر نظرا للعائد الذي تجنيه البلاد ..

كان الملفت للتوقف والتأمل أن الشاذلي بن جديد هو نفسه من مَهَّد وبتخطيط مسبق لتلك الثورة في سبتمبر 1988 وقبل شهر من حدوثها ، جاء ذلك كرد فعل من جانبه على سيطرة جنرالات فرنسا المدعومين بالقوة العسكرية وتأييد الغرب المطلق لهم مما دعاهم إلى التعامل معه وكأنه غير موجود ، لقد دعي بن جديد الشعب الجزائري في التاريخ المذكور إلى الثورة على حاكميه والتخلص من ظلمهم ، وهو ما فهمه الشعب الجزائري الذي كان رهينة مع بن جديد في يد جنرالات فرنسا ..

إن قامت ثورة الخبز وتعامل معها جنرالات الجزائر بكل عنف وقتلوا خلالها أكثر من خمسمائة من المواطنين ، وخرج بن جديد من الأزمة رابحا لأنه حرَّك ماءً راکداً اعتمد عليه في قراراته التي تلت ذلك ..

لقد أدرك الشاذلي بن جديد وقبل ثورة الخبز أنه أمام أربع ملفات شائكة ، وفهم أن هذه الملفات تتداخل فيما بينها بصورة معقدة ، واعترف أمام نفسه بأنه غير قادر على التعامل معها ، فلجأ إلى تسخين الشارع المتهيي للتحرك ، وكان له ما أراد ..

قبل أن نخوض في القرارات المصيرية التي اتخذها الرئيس الشاذلي بن جديد ، لابد أن نتعرف أولا على تلك الملفات الأربعة التي حركت عقل بن جديد واعترف أمام نفسه - وهذه سابقة لآبد أن يحسبها له المثقف العربي - أنه غير قادر على الحل فاتجه إلى شعبه يضع على أكتافه كل الأحمال :

كان الملف الأول هو سيطرة جنرالات فرنسا على مقاليد السلطة والثروة في البلاد ، وقد تحدث عنها الشارع الجزائري بصورة سببت جرحا عميقا للشاذلي بن جديد ..
وكان الملف الثاني هو الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي تعصف بالشارع الجزائري بعد أن أكل الفساد الأخضر واليابس في البلاد ..
وكان الملف الثالث هو التيار الإسلامي الذي يبدو أنه يمشى بخطوات ثابتة كأمل للشارع الجزائري المشتاق لقدمه ، ربما كخلاص لما يجري في البلاد من فساد وتغريب فاحشين للمجتمع الجزائري ..
وكان الملف الرابع هو ما يحدث في مناطق القبائل من استنهاض للروح الأمازيغية ، مع ما قد يلي ذلك من تدخلات خارجية قد تعصف بالنسيج الجزائري الواحد ..

في 29 أكتوبر 1988 وبعد أيام من ثورة الخبز أعلن الرئيس الشاذلي بن جديد عن نيته في إجراء تعديل دستوري بالبلاد ، لكنه قبل إجراء هذا التعديل قام بخطوة إستراتيجية كبيرة وذات دلالة ، كأنه كان يوجه بها الشارع الجزائري لما يجب أن تكون عليه الأحداث القادمة .. لقد اتخذ بن جديد قرارا بعزل بعض رموز الفساد في الجزائر ، كان من أقوى هؤلاء المعزولين محمد شريف مساعديه مسئول الأمانة العامة في جبهة التحرير الوطني الحاكم ، وكذلك الجنرال الأكل العياط رئيس المخابرات العسكرية ..

في 23 فبراير 1989 صوت الشعب الجزائري في استفتاء عام لصالح التعديلات الدستورية التي اقترحها بن جديد ، تركزت تلك التعديلات في عدة نقاط وهي أن اللغة الرسمية للبلاد هي اللغة العربية ، وأن مهمة الجيش تنحصر في صون استقلال البلاد والدفاع عن سيادته ، وأن الإسلام هو الدين الرسمي للبلاد ، وأن الشعب له الحق في تشكيل الأحزاب المختلفة ..

تكونت على أثر الموافقة على التعديلات تلك الدستورية الجديدة الكثير من الأحزاب ، بلغ عددها ما يقرب من ستين حزبا من مختلف التيارات السياسية ، كان أهم تلك الأحزاب هي ما يلي :

- * الجبهة الإسلامية للإنقاذ : تحمل ميولا سلفية ويتزعمها د. عباس مدني وقد تكونت في مارس 1989 ..
- * جبهة القوى القوية الاشتراكية : حركة بربرية علمانية بقيادة حسين آيات أحمد وهو أحد قيادات جبهة التحرير الوطني وقد عاد من المنفى بعد أن رأى بعض الأمل ..
- * حركة النهضة الإسلامية : وهي تيار للإخوان المسلمين المحليين بقيادة عبد الله جاب الله ..
- * حركة المجتمع الإسلامي وهي تيار للإخوان المسلمين الدوليين بقيادة محفوظ نحناح ..
- * التجمع من أجل الثقافة والديمقراطية : هي حركة أمازيغية من مناطق القبائل بقيادة سعيد الساعدي ،
- * حزب العمال : وهو تيار يحمل أفكارا يسارية بقيادة السيدة لويزة حنون ..

في 12 يونيو 1990 جرت أول انتخابات بلدية في ظل التعددية الحزبية الجديدة ، فازت فيها الجبهة الإسلامية للإنقاذ بعدد 853 بلدية من أصل 1541 من إجمالي البلديات ، وكذلك بعدد 31 مجلسا من مجالس الولايات البالغ عددها 48 ولاية ..

طالب عباس مدني على أثر على هذا الانتصار لجبهة الإنقاذ بإجراء انتخابات تشريعية ، لقد برر موقفه بأنه لا يمكن الحديث عن تعددية حزبية في ظل برلمان يحتكره الحزب الحاكم وهو حزب جبهة التحرير الوطني .. قرر الرئيس الشاذلي بن جديد بعد عدة أشهر

من تلك الدعوة إلى انتخابات برلمانية وحدد 27 يونيو 1991 لإجرائها .

كان كل شيء يجري في الجزائر يدل على أن الأمور تجري في الطريق السليم ، ومن الطبيعي حينئذ أن يتجدد الأمل عند قطاعات الشعب المختلفة بتعويض ما فات من نهب لثروات البلاد ..

لم تكن الفئة الفاسدة الماكرة في دوائر الحزب الحاكم وكوادر الجيش من جنرالات فرنسا ليرضوا بما تسير فيه الأحداث ، فقاموا بإعادة توزيع الدوائر الانتخابية في البلاد بطريقة غير عادلة كي تُحرم جبهة الإنقاذ من أي انتصار حتى لو وقف بجانبها الشعب ، عندئذ دعت جبهة الإنقاذ الإسلامية إلى الدعوة إلى إضراب عام يتم تنفيذه في 25 مايو 1991 ..

لبت جموع الشعب نداء الإضراب العام الذي دعت إليه الجبهة الإسلامية للإنقاذ ، قامت السلطات الأمنية التي يسيطر عليها الجنرالات في 4 يونيو باعتقال عباس مدني وكذلك الرجل الثاني في الجبهة على بلحاج ، ثم صدر في حقهما حكم بالسجن لمدة 12 عاما ، تم على إثر ذلك تأجيل الانتخابات البرلمانية إلى 26 ديسمبر 1991 في المرحلة الأولى وإلى 16 يناير 1992 في المرحلة الثانية ..

في 26 ديسمبر 1991 ، كانت الجزائر كلها على موعد مع الحدث الكبير الذي يخشاه كل قادة الشرق الأوسط .. في هذا اليوم قاد الرجل الثالث في الجبهة الإسلامية للإنقاذ عبد القادر حشاني - اغتاله جنرالات فرنسا في نوفمبر 1999 - حركته إلى نصر مبين ، ففي تلك الدورة الأولى من تلك الانتخابات حصلت الجبهة على 188 مقعدا من مقاعد البرلمان البالغ 380 مقعدا ، تلتها جبهة القوى الاشتراكية التي حصلت على 25 مقعدا ، ثم جبهة التحرير الوطني التي حصلت على 16 مقعد ..

لقد جرت الانتخابات البرلمانية في دورتها الأولى في هذا اليوم المذكور على أروع ما يكون من تعاون حضاري بين جميع أطراف الشعب ، لقد صمم بن جديد على إنجاح هذا العرس الديمقراطي ، وقد أضحت فيه الجبهة الإسلامية للإنقاذ على مرمى حجر من مقاليد الحكم في البلاد ، أصبحت الدورة الثانية التي كانت ستجرى في 16 يناير 1992 مجرد تتويج لنصر حاسم ينتظره الشعب الجزائري ..

في الحلقة القادمة إن شاء الله سنواصل الحديث عن الحالة التي آلت إليها الجزائر ، علها تنير لنا الطريق ، فلا نقع فيما وقع فيه أشقاؤنا هناك ، فإلى اللقاء ..

رائف محمد الويشي

سانت لويس - ميزوري - أمريكا

elwisheer@yahoo.com

تابع مقالات سابقة لكاتب المقال على مدونته " ثوار مصر " وعنوانها كما يلي :

www.thowarmisr.com